

الاستشراق: مقارنة تاريخية نقدية

Orientalism: a critical and historical approach

بن عبد السلام بوبكر*

جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي (الجزائر)

boubakeur.benabdesselam@univ-oeb.dz

تاريخ الارسال: 2025-10-05	تاريخ التقييم: 2025-10-31	تاريخ القبول: 2025-12-10
---------------------------	---------------------------	--------------------------

ملخص

تروم هذه الدراسة مقارنة موضوع الاستشراق من زاوية المفهوم فالنشأة ثم التطور من خلال تتبع السياقات التاريخية التي انبثقت فيها هذه الظاهرة الثقافية، والتي لعبت دورا محوريا في صياغة الرؤى والتصورات الغربية عن الشرق عموما وعن الشرق الإسلامي تحديدا، فقد ساهمت أوروبا منذ العصور الوسطى وحتى العصور الحديثة وبشكل فعال في التأسيس لحركة الاستشراق باعتبارها نقطة ارتكاز أساسية في العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، و قد شكلت هذه العلاقات المتنوعة والمتعاقبة زمنيا، فضاء اختلطت فيه أجواء متعددة، لا بل ومتناقضة أحيانا، فمن الحرب إلى السلم ومن التجارة إلى الثقافة ومن الحوار إلى القطيعة وصولا إلى التصادم في كثير من الحالات، غير أن العلاقة التصادمية هذه، مثلت دوما الخلفية التاريخية والقاعدة الثقافية في الذاكرة الجماعية الأوروبية، وهي خلفية كيدية عدوانية بالأساس، حملها الاستشراق الأوروبي في بداياته وحتى نهاياته، معتمدا عليها ومتخذًا منها سلاحا استراتيجيا من أجل تحقيق أهدافه وبلوغ غاياته.

الكلمات المفتاحية:

الاستشراق؛ الشرق؛ الغرب؛ الاستعمار؛ الهيمنة.

Abstract:

This study aims to approach the subject of Orientalism from the perspective of the concept, its origins, and then its development by tracing the historical contexts in which this cultural phenomenon emerged. It played a pivotal role in shaping Western visions and perceptions of the East in general and the Islamic East in particular. From the Middle Ages to the modern era, Europe contributed effectively

to establishing the Orientalist movement as a fundamental focal point in cultural relations between the East and the West. These diverse and successive relations over time formed a space in which multiple, and sometimes contradictory, atmospheres were mixed, from war to peace, from trade to culture, from dialogue to estrangement, and even to collision in many cases. However, the confrontational relationship has always represented the historical background and cultural basis in the European collective memory. It is a malicious and aggressive background in general that European Orientalism carried from its beginnings to its end, relying on it and adopting it as a strategic weapon in order to achieve its goals and objectives.

Keywords:

Orientalism, East, West, Colonialism, Hegemony.

* المؤلف المراسل:

مقدمة:

عرفت الدراسات الاستشراقية طفرة نوعية واهتماما لافتا عند النخب الأوروبية والغربية عموما، خاصة أثناء فترة الحضور الإسلامي الفاعل في الأندلس وصعود نجمه وكذا عند أوله، فغدت مادة وثيمة للكثير من الأبحاث والدراسات، وقد ظهرت تبعا لذلك مدارس خاصة، عهد إليها تدريس العلوم واللغات الشرقية بشكل عام والتراث العربي الإسلامي وتحقيق المخطوطات وكلما يتصل بالحضارة العربية الإسلامية فكر أو فلسفة وتاريخ أو أنثروبولوجيا بشكل خاص، وإن كان صنف آخر من الباحثين رجعا ولظهور لهذا المجال الدراسات إلى الحقبة الإغريقية مع "هيرودوت" Herodotus الذي كان أو لم نتكلم عن أصول وعادات وتقاليده وسلالات أكثر من خمسين شعبا، فيما ترى فئة أخرى من الباحثين وعلى رأسهم "رائد أمير عبد الله" الذي "أرجع نشأة الاستشراق إلى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما احتكاك المسلمون بغيرهم من نصارى ويهود"¹، ويذهب فريق رابع إلى أن الحروب الصليبية (1291 – 1096) كانت هي بداية الاحتكاك

الفعليين المسلمين والنصارى، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى محاولة التعرف على المسلمين، وحتى وإن لم يقع اجماع حول بداية ظهور الاستشراق، فإنه يمكننا أن نسجل بوضوح أن أول ظهور للاستشراق لم يتأخر عن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، حيث كانت الحياة الفكرية والعلمية والفلسفية للمسلمين في الأندلس بعد فتحها لهم، عاملاً مهماً في انبعاث الاستشراق، ومحفزاً ودافعاً لانطلاقته.

أولاً- الاستشراق: قراءة في المفهوم:

من الناحية اللغوية، الاستشراق كلمة منحوتة من كلمة الشرق وهي مصوغة على وزن استفعال التي تعني طلب الشيء، والمقصود بطلب الشرق في هذا السياق هو طلب معرفة تاريخه وحضارته وعاداته وتقاليده وكل ما يتصل به، يعرف المعجم الوسيط الشرق بالطلوع، وقد جاء فيه: "شرقت الشمس شرقاً أي طلعت"²

أما من الناحية الاصطلاحية، فقد جاء في معجم "لاروس" أن الاستشراق "هو عبارة عن جملة من مكتسبات المعرفية ذات الصلة بالأمم الشرقية (لغاتها، معتقداتها، ثقافتها، تاريخها...)، أما المستشرق فهو من يقوم بدراسة الشرق أو تدريسه، أو الكتابة عنه مهما كانت خصصه. يقول أحمد حسن الزيات في هذا المعنى: "يراد بالاستشراق اليوم، دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأهمه ولغات هو آداب هو علومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لصلتها بالعلم، إذ بينما كانا لشرقاً من أدياننا لبقصاهم غموراً بما تشعب منها برغدوال القاهرة من أضواء المدنية والعلوم، كانا لغرباً من بحرهما المحيط بهما في غياهبنا الجهل الكثيف والبربرية الجموح"³.

لقد كانا للحضارة الإسلامية في الأندلس أثر مشهود على أوروبا والغرب عموماً، من خلال ما صدرت من شتى التخصصات في مختلف العلوم، فمن العلوم الكونية كالرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والطب إلى المبادئ والقيم الإنسانية، إلى وسائل وطرائق الحكامة الراشدة، فيما يذهب الباحث أحمد عبد الحميد غراب مذهباً أكثر تحاملاً وتشدداً في تعاطيه مع مفهوم الاستشراق بقوله إنه عبارة عن مجموعة "دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهلال كتاب بوجه

خاص، للإسلام والمسلمين، منشئ
الجوانب العقيدة، وشرعية، وثقافة، وحضارة، وتاريخا، ونظما، وثورات وإمكانات تهدف لتشويه الإسلام
ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب علمهم ومحاولة تبرير هذا التبعية
بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على
الشرق الإسلامي"⁴

يمكن القول من خلال ما تقدم، أن هناك ثمة ارتباط وثيق وعلاقة قوية بين ما جاء في
الدالتين اللغوية من جهة والاصطلاحية من جهة أخرى لمصطلح الاستشراق، "فقد أطلق على
الدراسة التي تعنى بالعالم الشرقي مصطلح الاستشراق، و أطلق على الغربيين الذين يقومون
بتلك الدراسات بالمستشرقين وهم جماعة المؤرخين والكتاب الأجانب الذين خصصوا جزء من
حياتهم في دراسة وتتبّع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق"⁵.

إن هذا المفهوم للاستشراق، وإنسلط الضوء على الجانب المظلم الذي يحمله
بداخله، مفهوم مبسط، لأنها لا يمكن تبسيطها لأحوالها المعقدة كالمصطلحين فيسلة واحدة ومن
ثمة الحكم عليها بالجملة، فمن هؤلاء من كانت لهم مساهمات قيمة في دراسة الشرق تاريخا وتراثا
ومعتقدات وحضارة، وقد شهد على ذلك الكثير من عدول هذه الأمة ومنصفها.

فيما ترى فئة أخرى من الباحثين والنقاد أن الاستشراق قام لغاية أساسية هي معرفة الشرق
معرفة دقيقة: تاريخه، ثقافته، تراثه، دياناته، عاداته وتقاليده، مواطن قوته ومواطن ضعفه،
ومن ثمة السعي الحثيث من أجل احتوائه والسيطرة عليه وعلى جميع خيرات ومقدراته، وقد
تم هذا العمل من خلاله دراسة اللغة والآداب والأديان والفلسفة والتاريخ، خاصة ما تعلق منها
بالعالم العربي والإسلامي، كما أن الاستشراق مصطلح فيه دعوة ضمنية، وفي كثير من الأحيان
صريحة، إلى الاهتمام بكل ما يتصل بالشرق، وقد ارتبط الاستشراق عبر مسيرته، منذ ظهوره
وحق العصور الحديثة بمعان ثلاث، يشير المعنى الأول إلى دلالة جمالية مرتبطة بشكل
أساسي بفن الرسم والأعمال الفنية الأخرى أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فيما
يشير المعنى الثاني إلى الدراسات الأكاديمية التي أنجزت بهدف الهيمنة والسيطرة الاستعمارية،

أما المعنى الثالث فيشير إلى الخطاب الثقافي المصاحب لهذه الظاهرة الذي أنتجته القوى الاستعمارية والذي يتضمن مجموع الرؤى والتصورات الخاصة بالثقافات الشرقية عموماً، وحول مفهوم الاستشراق والمستشرقين يقول الناقد الأمريكي ذي الأصول الفلسطينية إدوارد سعيد صاحب المؤلف العلم الموسوم بـ "الاستشراق": "كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أوبحثه ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) أو بعلم الاجتماع أو مؤرخاً (الفيلولوجي) في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق وما يقوم هو أو هي بفعله هو استشرق"⁶، وحول نفس المفهوم يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي "إننا نعني بالمستشرقين، الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"⁷.

ثانيا - الاستشراق: الإرهاصات الأولى:

ظهرت الإرهاصات الأولى وبواكير الدراسات الاستشراقية بعدما أحس الغرب بتفوق العالم الإسلامي في شتى مناحي الحياة، إن السياسية والاقتصادية أو العلمية والثقافية أو الفكرية والفلسفية، فبدأ علماء الغرب وآباء الكنيسة بدراسة الإسلام، بهدف التعرف عليه، فتوسعت دائرة الاستشراق بمرور الزمن شيئاً فشيئاً، فأخذت طابعا سياسيا استدماريا تارة، وتبشيريا تارة أخرى، بحسب الأوقات والفترات التاريخية التي مر بها الاستشراق.

وقد اختلف النقاد والباحثون وتباينت آراؤهم بشأن أول ظهور للدراسات الاستشراقية، خاصة تلك التي تعنى بدراسة الشرق الإسلامي، ففريق يرى أن النشأة الأولى للاستشراق تعود إلى فترة ما قبل الميلاد، وهو ما لمسّه بعض الباحثين والمؤرخين في كتابات هيرودوت اليوناني، وفريق آخر يرى أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام من خلال لقاء الرسول ﷺ بنصارى نجران، أو إرساله ﷺ لرسله إلى الملوك والأمراء من خارج حدود الجزيرة العربية، وفريق ثالث يعتقد أن الدراسات الاستشراقية انطلقت في القرن الثاني عشر الميلادي بالتزامن مع ظهور بعض ترجمات القرآن الكريم، فيما يرى فريق رابع أن أول ظهور للاستشراق كان في القرن الثالث عشر الميلادي ويستشهدون على ذلك بصور قرار مجمع " فيينا " الكنسي عام 1312م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية، وينسب فريق خامس ميلاد

الاستشراق إلى الزمن الذي قرر فيه الغرب المسيحي الدفاع عن أراضييه من الزحف الاسلامي الجارف الذي اجتاحت أوروبا، ونعني بذلك أن البداية كانت مع الهزيمة التي مني بها المسلمون بزعامة عبد الرحمان الغافقي على يد شارل مارتل Charles martel في معركة "بلاط الشهداء" في مدينة بواتييه "Poitier" الفرنسية سنة 737م، يقول الأكاديمي والمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان Charles-andré julien تعليقا على هذه الواقعة "لولا انتصار شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولنجت اسبانيا من محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون" ⁸، وهي الفكرة نفسها التي عبر عنها العلامة "لافيس" بقوله: "كم من الأحزان والآلام والجنايات كان يمكن إنقاذ البشرية منها لو لم يوقف شارل مارتل العرب السير في فتوحاتهم" ⁹، إن هذه الشهادات تثبت للعدو قبل الصديق أن الفتوحات الإسلامية لبلاد الفرنجة لم تكن أبد غزوا كما يدعي ويروج لذلك الكثير من أبناء جلدتنا قبل غيرهم في وقتنا الحالي.

لكن لئن اختلف هؤلاء الدارسون المشتغلون بموضوع الاستشراق واختلفت آراؤهم حول زمن بعينه، فإنهم يجمعون على أن فترة الحضور الإسلامي في الأندلس هي الفترة التي ظهرت فيها الدراسات الاستشراقية وتطورت، يقول مصطفى السباعي عطفًا على ذلك "لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس أثناء عظمتها ومجدها، وثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتعلموا على أيدي علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات" ¹⁰، وبعد رجوع هؤلاء القسيسين والرهبان إلى مواطنهم، "عملوا على نشر كل ما تعلموه في الأندلس، وترجموا الكثير من مؤلفاتهم وأسسوا المدارس والمعاهد التي تعنى بتدريس الحضارة والعلوم والثقافة العربية والإسلامية، ومن الرهبان الأوائل الذين أسسوا لهذا التوجه العلمي والأكاديمي الجديد، نجد الراهب الفرنسي "جربرت Gerbert" (البابا سلفستر الثاني Selvestre II) الذي انتخب "بابا" لكنيسة روما عام 999م، بعد أن أخذ الكثير من العلوم عن علماء الأندلس ومفكرها وفلاسفتها، و"بطرس المحترم (1156 – 1092)"، و"جيرار دي كريمون (1114-1187) وغيرهم" ¹¹.

وقد شهد الاستشراق عصره الذهبي وبلغ قمته السامقة بعد أن حققت أوروبا نهضتها العلمية والصناعية أي منذ نهاية القرن الخامس عشر وما يليه، وبخاصة بعد تأسيس الكثير من الجمعيات العلمية في أوروبا، الشئ الذي أعطى دفعة كبيرة وانطلاقة قوية للاستشراق.

ثالثا- المحطات الأساسية للاستشراق :

شهد الاستشراق منذ ظهوره محطتين حاسمتين: محطة الاستشراق الكلاسيكي الذي بدأ في العصور القديمة وامتد عبر العصور الوسطى، ومحطة الاستشراق الحديث والمعاصر الذي تطور مع الاستعمار ليشمل دراسات واسعة في اللغات والعلوم والتاريخ والفلسفة، وتطور في فترات لاحقة ليشمل فترة "ما بعد الاستعمار" و"الاستشراق الجديد" مع تركيز بؤرة اهتمامه على المسائل الثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية.

1- الاستشراق الكلاسيكي:

1-1- الاستشراق خلال الحروب الصليبية:

يرى بعض الباحثين والمؤرخين أن بدايات الاستشراق الحقيقية إنما كانت مع انطلاق الحملات الصليبية، التي لم تنجح في تحقيق أهدافها، الشئ الذي دفع قادتها ومنظرها إلى زيادة الاهتمام بالشرق من خلال دراسته من جميع الجوانب، دراسة تاريخية وثقافية وأنثروبولوجية ونفسية واجتماعية، تمهيدا لغزوه والهيمنة عليه وسلبه خيراته ومقدراته، فقد تمت، أثناء اندلاع الحروب الصليبية، دراسة السلوك الصادر عن سكان الشرق وبشكل خاص الشرق الاسلامي دراسة غلب عليها الطابع الذاتي، وبعيدة كل البعد عن الدراسات الأكاديمية والموضوعية، فانتشرت بذلك الكثير من الصور السلبية الصادرة عن المستشرقين، صور تسيئ في الغالب إلى الدين الإسلامي، ويعزو هؤلاء الباحثون هذا الأمر إلى كون المستشرقين عاجزين عن إتقان اللغة العربية بشكل صحيح، وبالتالي أسأؤوا الترجمة ومن ثمة أسأؤوا الفهم.

1-2- الاستشراق في عصر النهضة:

ساهمت الدراسات الاستشراقية في عصر النهضة في انتقال أوروبا من مرحلة الركود التي أتت على جميع جوانب الحياة، علمية وفكرية كانت، أم اقتصادية وتجارية، أو أدبية وثقافية، إلى مرحلة الانتعاش والتطور فبرز الكثير من العلماء والمفكرين والفنانين (من العلماء نذكر كوبرنيكوس وفيساليوس، ومن المفكرين نذكر ألدو مانوتسيو، ومن الفنانين مثل ليوناردو دا فنشي ورافائيل، ومايكل أنجل، وميكافيلي وغيرهم في مجالات الفن والأدب والعلوم التي شهدت تطوراً كبيراً خلال هذه الفترة)، نقلوا المعارف والقيم الحضارية الإسلامية إلى أوروبا مما حفز - من جهة - على نهضتها في شتى مناحي الحياة، ومن جهة ثانية شكل وسيلة لترسيخ السيادة الغربية على الشرق في مراحل لاحقة، وذلك من خلال تلك الصور النمطية *Les images préconçus* والأحكام الجاهزة *Les préjugés ou les stéréotypes* المسبقة التي فرضت تصور غربي للشرق مرتبط بالسلطة الاستدمارية، بحسب الناقد إدوارد سعيد.

2- الاستشراق الحديث والمعاصر:

أضحى من المسلمات في الوقت الحاضر الاعتقاد بالدور المفضوح والواضح الذي أدته الدراسات الاستشراقية من أجل تكريس الوجود الاستدماري في الكثير من البقع الجغرافية عبر العالم، فقد قدمت هذه الدراسات الاستشراقية معرفة معمقة ودقيقة عن المجتمعات الشرقية (ثقافتها ودياناتها ولغاتها وتقاليدها مكان قوتها ومواطن ضعفها) وهي معرفة تم استخدامها من بعد لتسهيل عملية التسلل والسيطرة.

وفي مرحلة الاستدمار، ارتبط الاستشراق ارتباطاً وثيقاً بأغراض الهيمنة الغربية وأصبح أداة لخدمة السياسات الاستدمارية، حيث اعتمدت الدول المستدمرة على دراسات المستشرقين لتسهيل سيطرتها، وفهم المجتمعات الشرقية لإخضاعها، وإضعاف الروح المعنوية والمقاومة لدى شعوبها، بل ولأجل تشويه ثقافتها ودياناتها. استخدمت الدراسات الاستشراقية لخلق صورة نمطية عن "الشرق" كحضارة بدائية ومنحطة وغير قادرة على حكم نفسها بنفسها باعتبارها قاصر وغير مؤهلة لذلك، مما يبرر التدخل الاستدماري باعتباره اسهاماً في الحضارة

والتطوير..، وهي الكذبة الكبيرة التي ظل الاستدمار يسوقها للعالم لسنوات طوال، ونقصد بذلك ادعائه، زورا وبهتانا، بأن مهمته إنما هي مهمة تمدينية صرفة *Mission civilisatrice*.

كما سعى الاستشراق إلى تبرير السيطرة الاستدمارية من خلال تصوير الثقافات الأوروبية على أنها هي الثقافات المركزية (المركزية الأوروبية *Eurocentrisme*) المتفوقة مقارنة بالثقافات الشرقية الهامشية التي غالبا ما تم تصويرها على أنها إلى أفول دائم.

رابعاً- أهداف المستشرقين:

1- الذود عن مقدساتهم وتحصين ذواتهم:

لقد كان للانتشار السريع للدين الإسلامي عبر جميع بقاع الأرض، أثر سلبي على الديانة المسيحية ، ففي الوقت الذي كان الدين الإسلامي يشهد اقبالا منقطع النظير من قبل معتنقي الديانات الأخرى، كانت الكنيسة تشهد عزوفا ونفورا، الشيء الذي دفع بها إلى السعي الحثيث لمعرفة الإسلام ليسهل عليها محاربته وتشويهه حتى يتقلص مده، وبهذه الطريقة تستطيع " حماية المسيحيين من خطر يحجب حقائقه عنهم، واطلاعه على مل فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من الاستسلام لهذا الدين"¹² ، وقد نجحوا في تحقيق ذلك إلى حد كبير عن طريق اعتمادهم على البعثات التبشيرية وكذا تركيزهم على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية.

2- انهك قوى المسلمين والإجهاد عليهم:

عمل أتباع الكنيسة المسيحية وبخاصة المستشرقين منهم، بعد أن ألحقوا الهزيمة بالمسلمين في موقعة "بواتيه" *Poitier* (معركة بلاط الشهداء) ، واطمئنناهم بعد صدهم للزحف الإسلامي، على زعزعة الإيمان في قلوب المسلمين وتشكيكهم في دينهم وفي قرآنهم وفي سنة نبهم صلى الله عليه وسلم، وتشتيت صفوفهم وزرع الفرقة والفتنة والتناحر بينهم، وادخالهم في اتون حروب عبثية لا رايح فيها سوى العدو، ومن ثمة الإجهاد والقضاء عليهم، وهو الهدف الذي لا يزال بعض المستشرقين يعملون لتحقيقه حتى يومنا هذا، وحرب غزة ليست عنا ببعيد.

3- التبشير:

لطالما عد الاستشراق بمثابة المخبر الذي تجرى فيه جميع العمليات والتجارب الخاصة بالسيطرة والهيمنة على الشعوب المستضعفة والمقهورة والمغلوبة على أمرها، إنه الهيئة التي تنظر وتخطط وتبرمج وهو أيضا الأداة والوسيلة التي بها يسترشد المنصرون والمبشرون، " ولذلك كان المستشرقون هم الطلائع الأولى للمنصرين، وكان الاستشراق في بدايته مقتصرًا على الرهبان والقساوسة ورجال الكنيسة"¹³.

إن ظهور الحملات التبشيرية وانتشارها، كان هدفا دينيا صرفا، الغاية منه هو القضاء على أحد أهم مكونات الهوية الوطنية وهو الدين، وليس أدل على ذلك من الاستعمار الفرنسي للجزائر، لقد " أوكل للمستشرقين دور إفراغ الجزائريين من معتقداتهم حتى تنهار الروح المعنوية الدينية والوطنية، ومنه انهيار المقاومة... التي ارتكزت دوما على هذه الروح، ولقد أدى المستشرقون هذا الدور بإمتياز"¹⁴.

4 - التمكين لفكرة المركزية الأوروبية:

يهدف الاستشراق فيما يهدف إليه أيضا إلى القضاء على الثقافات واللغات المحلية (الهامشية) ومحوها من خلال تشويه الحقائق، ونشر الأفكار التي تقلل من شأن هذه الثقافات، وغرس الأفكار السلبية عنها في الأذهان الغربية والشرقية على السواء، ومحاربة اللغة العربية وصبغ البلاد الشرقية بطابع ثقافي أوروبي غربي، وقد نشط الاستشراق في هذا المجال أيما نشاط، فأسست المعاهد العلمية والتعليمية التنصيرية في أنحاء العالم الشرقي، ساعيا إلى التمكين لحضارتهم وثقافتهم وعاملا على نشر قيمه وأفكاره وتصوراتهِ واعتباره أن الغرب هو مركز هذا الكون، وأن ما دونه الهامش.

إن عمل الاستشراق على تسويق فكرة المركزية الأوروبية الغربية - التي لطالما حاولت إيهام العالم بأن الحضارة والثقافة وكذا الآداب الأوروبية ما هي إلا الوجه الآخر للحضارة والثقافة والآداب العالمية ليس إلا، من خلال اعتبارها هذه الآداب، آداب الأسياذ فيما آداب باقي الأمم

هي آداب العبيد- فشل في مسعاه التضييلي هذا، فيكفي نظرة موضوعية واحدة على حجم الإنجاز الغربي في التاريخ الحضاري للبشرية، لنكتشف بما لا يدع مجالاً للشك أن الأوروبيين كثيراً ما يقعون في وهم المبالغة والتهويل والتضخيم بحسب رؤية الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Faucault، فالأمة التي تعتد بتاريخها وماضها بقدر ما فيه من قوة وعنفوان ورقي، إنما تتناسى أن كل فترة تاريخية ليست بمقدار ما تم فيها من إنجازات، وإنما بمقدار الدور الذي لعبته في صناعة تاريخ البشرية بشكل عام.

كما يعتبر الاستشراق أيضاً أداة نشطة وفعالة لفرض السيطرة الاستدمارية الفكرية والثقافية، حيث عمل في مختبراته لإعادة تشكيل الثقافات المحلية حتى تتماشى وقيمه الحضارية، محاولاً طمس الهويات المحلية، وأحلال الثقافات الغربية محلها.

خامساً- الاستشراق وتنميط الشرق في المتخيل السردى الغربي:

عمل الاستشراق على إضفاء صورة نمطية غاية في السلبية على كل ما هو شرقي من خلال مجموعة من المؤلفات التاريخية والأدبية انطلاقة من نهاية القرن العاشر ووصولاً إلى القرن العشرين.

كانت البداية مع فتح القسطنطينية، وهو حدث تاريخي بارز وقع في سنة 1453م، عندما تم فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية على يد السلطان محمد الفاتح، بعد حصار دام خمسا وخمسين (55) يوماً، أنهى هذا الفتح الإمبراطورية البيزنطية التي استمرت ألف عام، وامتدت آثاره إلى إنهاء العصور الوسطى في أوروبا، وحدوث تحولات عالمية كبرى غيرت مجرى التاريخ، أضحت فيها مدينة اسطنبول عاصمة جديدة للدولة العثمانية.

لكن البداية الفعلية كانت من اللحظة التي شرع فيها الفنانون الأوروبيون رسم شخوصهم معتمدين وموشحين بالأحزمة، لقد كان سقوط القسطنطينية إيذاناً بعبور الثقافة الشرقية إلى العمق الأوروبي، فما لبثت ألبسة الفاتحين الأتراك، بقفاطهم وعمائمهم المرصعة بالجواهر

وسيو فهم المقوسة، أن شقت طريقها إلى لوحات الفنانين وكتاباتهم، خاصة منها تلك المعروفة بالكتابات الرحلية.

وقد إتجه الكثير من الكتاب إلى هذا الفن الأدبي الانطباعي، أدب الرحلة، الذي اعتمد أساسا على الوصف والحوار واستخدامه للأسلوب القصصي، فكان له دور بارز في معرفة الشرق والانفتاح عليه، وهذا بغض النظر عن طبيعة الرحلة أكانت "رحلة جغرافية، أو رحلة خيالية، أو رحلة ما بين اللغات والثقافات، كل هذه الرحلات وضعت الأنا في مقابل الآخر، وعدت تمثالا لمختلف أوقات الالتقاء بين افريقيا واوروبا والأمريكيتين "ترجمة الباحث.

" voyage géographique, voyage imaginaire voyage entre les langues et les cultures, Ils mettent tous en rapport le même avec un autre et se veulent une représentation de différents moments de mise en contact entre l'Afrique, l'Europe et les Amériques ¹⁵ .

سادسا- الاستشراق من منظور الأدباء العرب: أو المنزلة بين المنزلتين:

انقسم الباحثون والنقاد العرب حول موضوع الاستشراق والمستشرقين إلى طائفتين طائفة ترى فيه الخير المطلق، واثقة كل الثقة في ما انتهت إليه أعمال رموز هذه الثيمة، ممجدة إياها ومعمدة عليها بشكل كامل ويأتي على رأس هؤلاء الأديب "طه حسين " في مؤلفه "الأدب الجاهلي" حيث يقول: "وكيف تتصور أستاذنا للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج "المستشرقون" من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة، وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولا بد من التماسه عندهم، حتى يتاح لنا نحن أن نهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا" ¹⁶ ، ومن بين الممتدحين أيضا للإستشراق والمروجين له في عالمنا العربي الاسلامي نجد الباحث "نجيب العقيلي" في كتابه الموسوم ب"المستشرقون" وكذا الأديب أحمد أمين في مؤلفه: فجر الإسلام وضحي الإسلام و" من هؤلاء أيضا علي حسن عبد القادر في كتابه " نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي" وهو ترجمة حرفية لما كتبه "جولد تسيهر" في كتابه

دراسات إسلامية والعقيدة والشريعة في الإسلام"¹⁷، أما الطائفة الثانية فترى في الاستشراق الشر المطلق وأنه لا يعدو إلا أن يكون مطية ومدخلا تستطيع من خلاله قوى الاستعمار معرفة حقيقة الشرق والشرقيين، تاريخهم ومعتقداتهم، عاداتهم وتقاليدهم، عوامل قوتهم ونهضتهم وعوامل ضعفهم وكبتهم، ومن هنا تسهل السيطرة عليهم و سلمهم خيراتهم ومقدراتهم، ويمثل هؤلاء الأديب اللبناني فارس الشدياق من خلال ما جاء في مؤلفه "ذيل الفاريق".

لكن النظرة العلمية والموضوعية لمسألة الاستشراق تفضي حتما إلى القول بأن للاستشراق مساوئ كما له حسنات، وأن له سقطات كما له نجاحات، و أن له سلبيات كما له إيجابيات .

فإذا كان البعض لا يرى في الاستشراق سوى سعيه الدؤوب لتثبيت تلك الصور النمطية السلبية عن الشرقي عموما والمسلم تحديدا من خلال وصفه ووسمه بالمختلف أحيانا والمتوحش أحيانا أخرى والمتسخ الذي لا يهتم بالنظافة حيناً ثالثاً، في حين أن الحقيقة عكس ذلك تماماً، فالدراسات الأنثروبولوجية الحديثة تؤكد على أن الغرب لم يتعرف على النظافة إلا من خلال الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي الذي جعل لهذا الأمر شأن عظيم، فالمسلم لا يمكنه القيام للصلاة من دون غسل أو وضوء خمس مرات في اليوم، أو تكريسه لمركزية الغربي في مقابل هامشية الشرقي، وكذا تحيزه الثقافي وانتصاره للعرق الأوروبي، وإثارته الشبهات حول القرآن الكريم بعامة والسنة النبوية بشكل خاص، وقد تولى هذا الدور الهدام إمام المستشرقين في أوروبا وهو المستشرق المجري المسيحي "جولد تسهر" 1850 – 1921م الذي شكك في قيمة الفقه الإسلامي بزعمه أن هذا الفقه إنما تم اقتباسه من نظم اليونان وأن المصطلحات الشرعية مستوحاة من الديانة اليهودية، وبهذا يكون الاستشراق قد نجح في تكوين جيل متشكك في دينه وتاريخه وموروثه الحضاري، ومتشبع بقيم وثقافة الاستشراق، فإن البعض الآخر يرى للاستشراق دور مهم وإيجابي في مجالات عدة، وأنه لا ينبغي شيطنة الاستشراق ونفي جميع إسهاماته في تطور الحضارات الشرقية، فلقد تعرفنا على الكثير من تراثنا وثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا من خلال التحقيقات والأبحاث والدراسات التي قام بها المستشرقون، تماماً كما كان جمال الدين الأفغاني يفتخر ويقول أن الأوروبيون تعرفوا على

أرسطو من خلال العرب، وقد عمل المستشرقون أيضا على المساهمة الفاعلة في إحياء التراث الإسلامي، بتحقيق المخطوطات والفهرسة وكذا الطبع والنشر وغير ذلك من الجهود المشهود لها بالموضوعية والنزاهة العلمية، وإن كانت هذه الجهود لا تخلو من الهنات والزلات، وعلى الدعاية للثقافة الشرقية ونشر قيمها ومفاهيمها بين المثقفين الغربيين، ولعل أهم من عمل على ذلك نذكر: الأنثروبولوجي وعالم النفس والمجتمع الفرنسي جوستاف لوبون *bon Gustave* في كتابه "حضارة العرب" واللساني الألماني "كارل برو كلمان" *Carl Brockelmann* في مؤلفه "تاريخ الأدب العربي" وغيرهما كثير.

ومن الآداب التي تأثرت بالحضارات الشرقية خاصة ما تعلق منها بالإسلام والمسلمين نجد الأدب الفرنسي، حيث اطلع أباء الكنيسة على الثقافة الصينية وترجموا الكثير من ابداعاتها، كما اعجب عدد كبير من رموز وأعلام الأدب الفرنسي بالمدارس والموضوعات السائدة في الأدب العربي والصيني على حد سواء، فقد استوحى جان جاك روسو *Jean jacques rousseau* مثلا موضوع مؤلفه "اعترفات" *Confession* من الشرق، وكذلك فعل جان ديلافونتين *Jean de La Fontaine* في أساطيره، كما تأثر مونتسكيو فولستر *Montesquieu-Volvestre* بالثقافة العربية فجاء كتابه رسائل فارسية *Lettres persanes* متأثرا بما جاء في كتاب ألف ليلة وليلة، متضمنا تنوع نزعاتها وتعدد احتفالاتها، كما أخذ مونتسكيو أيضا عن ابن خلدون بعض فلسفته الاجتماعية في كتابه روح الشرائع *Esprit des lois* وتم تسريب العديد من الأغراض القصصية الشرقية إلى الدراما الفرنسية من قبيل مسرحيات عن: أبي بكر، والجنة ومكة، وقوافل الحج وغيرها كثير.

خاتمة:

بعد هذا التطواف في المتون الاستشراقية، يمكن أن نخلص لبعض النتائج لعل أبرزها:

- يعد الاستشراق ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الشرقي عموما والإسلامي تحديدا والعالم الغربي، لا بل هو رأس الحربة في هذا الصراع، لقد بات يمثل الخلفية الفكرية الحقيقية لهذا الصراع، كما لا يزال التراث الاستشراقي يمثل دليلا للاستدمار

في شعاب الشرق وأوديته، من أجل فرض السيادة والهيمنة الاستدمارية عليه، وتركيع شعوبه وإذلالها.

- ضلت أعمال الكثير من المستشرقين في شتى المجالات العلمية خاضعة للظروف الاستدمارية، الشئ الذي أدى بأصحابها إلى الانحراف عن مبدأ الموضوعية والحيادية الذي تقتضيه هذه الأبحاث.

- تنوعت أغراض الاستشراق بين أغراض استدمارية وأخرى دينية في الغالب والقليل منها ذات طابع علمي غير أن الشائع فيها أغراض استدمارية توسعية.

- لكن هذا الكلام لا يمنع من القول أن ثمة أسماء من بين هؤلاء المستشرقين من كان منصفاً وموضوعياً في دراساته وأبحاثه، إنكتابات بعض المستشرقين في شتى الدراسات النموذجية، مستجمعاً لتخصصات العلمية، إن جدوى أبحاثهم هذه لا يمكن أن ينكرها إلا جاهل لا يلقي بالا للبحث العلمي أوجاحد يرى الحقائق أمام عينيه ثم ينكرها، ولئن عملت جمهرة من الباحثين على الاصطفاف ضد المستشرقين أعمالهم فإن طائفة أخرى منهم تشهد للمستشرقين بالسبق في الاهتمام بالتأليف المعجمي الموسوعي إحياء التراث العربي الإسلامي، وكذا تحقيق كثير من المخطوطات العربية والمحافظة عليها وفهرستها، وقد يرى البعض أنهم لو لم يهتموا بمخطوطاتنا ويضعون لها الفهارس ويحفظونها لضاعت منذ مئات السنين. كما عمل البعض منهم أيضاً على تعريف المجتمعات الغربية بالدين الإسلامي، لا بل وقيام بعض المستشرقين بنقد دراسات زملائهم، وصولاً أحياناً إلى اعتناق بعضهم للدين الإسلامي.

الهوامش والإحالات.

1. رائد أمير عبد الله، المستشرقين الألمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربية الإسلامية، مجلة كلية العلوم، الإسلامية، المجلد الثامن، 15/1، 2014، ص 4.

2. مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، ص 482.

3. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر. القاهرة، مصر، ص 512.
4. أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، ط 2 - ، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص 7.
5. ينظر محمد حمدي زقزوق: الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، مصر، 1993، ص: 18.
6. إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، ط 2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1995، ص 38.
7. مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت لبنان، 1969، ص 5.
8. أنور الجندي، الفكر الاسلامي: مقدمات العلوم والمناهج، ط 1، القاهرة، مصر، 1972، ص 292.
9. مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، لبنان، 1973، ص 73.
10. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، ط 7، دار الأندلس. بيروت، لبنان، 1946، ص 11.
11. اسماعيل علي محمد، نشأة الاستشراق <https://www.alukah.net> 2025/6/15 ساعة الاطلاع 22 س 05 د.
12. محمد حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 75.
13. زلافي ابراهيم، رسال لغز والفرنسي إلى الجزائر " التنصير أنموذجا"، مجلة إشكالات، معهد الآداب واللغات لمركز الجامعي تمنراست، ع 8، الجزائر، ديسمبر، 2015، ص 309.
14. احميدة عميراوي، تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 12.
15. Elisabeth Mudimbé - Boyi , Essais sur les cultures en contacts, Afrique, Amérique, Europe, Khartala, Paris, 2006, p: 243.

16. طه حسين، في الأدب الجاهلي، مؤسسة عنداوي، القاهرة مصر، 2014، ص 18.
17. هاشم ابو الحسن علي، الاستشراق والاستغراب، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، المجلد 25، العدد 25، 2016، مصر، ص 318.

المصادر والمراجع:

أ- باللغة العربية:

- 1- أنور الجندي، الفكر الاسلامي: مقدمات العلوم والمناهج، ط 1، القاهرة، مصر.
- 2- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر. القاهرة، مصر.
- 3- أحمد عبد الحميد غراب، 1988، رؤية إسلامية للاستشراق، ط 2 - ، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 4- أحميدة عميراوي، 2004، تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى عين مليلة، الجزائر.

- 5- إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، 1995، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان.
6-
7- حسن إبراهيم حسن، 1946، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، ط7، دار الأندلس، بيروت، لبنان.
8 - رائد أمير عبد الله، 2014، المستشرقين الألمان وحدهم تجاه المخطوطات العربية الإسلامية، مجلة كلية العلوم، الإسلامية، لمجلد الثامن 1 / 15 .
9- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر.
10- ينظر محمد حمدي زقزوق، 1993، الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، مصر.
11- مالك بن نبي، 1969، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت لبنان.
12- مصطفى خالدي وعمر فروخ، 1973، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، لبنان.
13- زلافي إبراهيم، رسلا لغز والفرنسي إلى الجزائر " التنصير أنموذجا"، مجلة إشكالات، معهد الآداب واللغات المركز الجامعي تمناست، ع 8، الجزائر، ديسمبر، 2015.
14- طه حسين، 2014، في الأدب الجاهلي، مؤسسة عنداوي، القاهرة، مصر.
15- هاشم أبو الحسن علي، 2016، الاستشراق والاستغراب، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، المجلد 25، العدد 25، مصر.

ب- باللغة الأجنبية:

-Elisabeth Mudimbé - Boyi , 2006, Essais sur les cultures en contacts, Afrique, Amérique, Europe, Khartala, Paris, France.

ج- المواقع الإلكترونية:

اسماعيل علي محمد، نشأة الاستشراق <https://www.alukah.net> 2025/6/15 ساعة الاطلاع 22س05د.